المحاضرة الخامسة

نظريات في انحطاط الإمبراطورية الرومانية في الغرب وسقوطها.

لماذا سقطت الإمبراطورية الرومانية في الغرب ومتى. يختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في هذا الصدد. فهم مختلفون في الأسباب وعللها. ومن الطريف حقا تراهم يتساءلون عن تاريخ السقوط أيضا. أهو في سنة 410 م أم في سنة 455 م أو في سنة 476 م أو لا يمكن اعتبار سنة 800 م خاتمة المطاف لذا فهناك نظريات متعددة متنافرة عالجت الموضوع دينيا ودنيويا فأقطاب المسيحية والوثنية نسبوا سقوط روما من علياها إلى إرادة السماء. إن رائد الفريق الأول هو القديس اوغسطين

354-430الذي أكد بأن سقوط روما بابل الثانية عبارة عن مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة حيث مصير الإنسانية أنها يد الله المرشدة للحوادث الكونية وتوجيهها ولا مفر للبشرية من أتباع الإرادة الإلهية والانصياع لها. وما التاريخ الا مسيرة البشرية نحوا دار الخلود. وقد ضمن القديس اوغسطين آراءه في هذا الشأن في كتابه مدينة الله. والذي قصد به الدفاع عن الدين المسيحي ضد التهم التي نسبت سقوط روما بيد الاريك زعيم الغوط الغربيين سنة 410 إلى تعاليم المسيحية ولنقمة الإلهة الوثنية لترك الدولة عبادتها. ومن أشد المؤرخين الوثنيين في القرن الخامس الذين وجهوا التهم إلى المسيحية وتحميلها مسؤولية سقوط روما هو المؤرخ زوزيموس في كتابه التاريخ الجديد. ارخ فيه الحوادث الرومانية إلى سنة 410 وأشار بصراحة إلى أن المسيحية من الأسباب الهامة في تردي الأحوال في الإمبراطورية ويحمل الإمبراطور قسطنطين الكبير المسؤولية

الأولى وان سقوط الإمبراطورية في الغرب نتيجة لنقمة الالهة الوثنية هذا وقد ذهبت النظريات الدنيوية مذاهب شتى ومن الأوائل في هذا المضمار اميانوس مارسيلينوس المولود عام 330 في أنطاكية دون التاريخ الروماني ابتداء من حكم الإمبراطور نرفا سنة 96 إلى مقتل الإمبراطور فالنز سنة 378 ومع كونه وثنيا فقد نسب الكوارث التي احاقت بالرومان إلى ضعف الوازع الخلقي ويشير الأستاذ السورث هنتكتون في مقالة له أن انحطاط الإمبراطورية الرومانية في الغرب يتعامد مع فترات الجفاف التي أصابت العالم وقد سجلت إحصائياته في فترة 200 م- 400 م نقصا متزايد في نسبة هطول الأمطار أدى إلى الجفاف والمجاعات وإلى تحركات البرابرة وطغيانهم على الإمبراطورية في الغرب. ويرى الأستاذ سيمخوفج رأى هنتكتون تقريبا فانهاك التربة في إيطاليا والولايات التابعة لها حولها إلى مراع. ويقول لو سأل المرؤ فلاحا آنذاك ما هو المربح بالنسبة له لكان جوابه المراعي وان آخر شيء يفكر به الزراعة ومع ذلك فإن المراعي نفسها أخذت بالتحول إلى أراضي جردا في إيطاليا. كما أن اهمال السلطات لمشاريع الري أدى إلى تفاقم خطر المستنقعات التي أصبحت بؤرا للملاريا التي حصدت ارواحا كثيرة من الفلاحين. وعليه فالإفلاس الزراعي قرر مصير الإمبراطورية في الغرب. ويعترض المؤرخ بيز على ذلك التفسير الجغرافي. ويعتقد أن الدمار الزراعي لم يشمل كافة الإمبراطورية. فهناك بلاد الغال حيث بقيت زراعتها مزدهرة حتى القرن الخامس وكذلك مصر. وإن التأخر الزراعي في إيطاليا يعود بالدرجة الأولى إلى عدم إشراف المالكين على مزارعهم الكبرى اشرافا مباشرة. اذ تركت الاقطاعيات الكبرى في إيطاليا والمسماة لاتيفونديا. لإدارة الوكلاء نيابة عن النبلاء الغائبين في المدن ولم يكن لهؤلاء الوكلاء ذلك الحرص على رفع المستوى الزراعي. أما الأستاذ أندري بيكانويل فيورد جملة عوامل أدت إلى الانهيار الاقتصادي وفي مقدمتها تدهور

مؤسسة العبودية. تلك المؤسسة التي التهمت الرجال كالتهام افران صهر الحديد للفحم الحجري. وقد كان من الضروري المحافظة على استمرار معين العبيد أن اريد الدوام للاقتصاد الروماني. غير ان منهل العبيد أخذ في النضوب منذ توقف الفتوحات الرومانية. وما حدث من جراء ذلك كالذي يحدث لأفران صهر الحديد عند فقدان مصدر الطاقة الحرارية. ويرى أيضا أن الاتجاهات الاقتصادية في الاقطاعيات الكبرى نحو سياسة الاكتفاء الذاتي اضرت بالمدن وأدت إلى تدمير رأس المال وطغيان الاقتصاد الطبيعي البدائي. ولعل الحروب الأهلية المستعرة في الإمبراطورية منذ عهد ماركوس اورليوس من العوامل الهامة التي ساعدت على اللجوء إلى سياسة الاكتفاء الذاتي في المقاطعات الكبرى. كما ان روما قد أخذت تفقد مركزها التجاري المرموق عندما أصبح الطريق التجاري الممتد بين الراين والدانوب يزاحم طريق البحر المتوسط منذ نهاية حكم الإمبراطور تراجان ويعتقد أيضا أن تدخل الدولة في المشاريع الاقتصادية جعل البلاد أشبه بمعمل يعتمد على العمل الإجباري، وبذلك ارتكبت الدولة عملية انتحارية. إذ ثارت سخط الطبقة العاملة ودمرت الاقتصاد. حقا ان الظروف الاقتصادية المتأزمة حتمت تدخل الدولة لانتشال الاقتصاد المتدهور.وكافحت كفاحا بطوليا لا يقاف الاتجاه نحو الاقطاع .وعلى ما يبدو أن هناك نظاما اقتصاديا جديدا في دور التكوين تميز بالعمل الحر في المقاطعات الحكومية على الأخص. ألا أن هذه الظاهرة التقدمية اعاقها عدم الاستقرار والضرائب الفادحة. ومصدر الشرور هي افة الحرب. ويذهب الاستاد ولبانك الى نفس الرأي السابق الى حد ما .اذ يشير الى أن السبب الحقيقي في انهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب بدائية التكنينيك المستعمل في الانتاج .حيث اعتمدوا بصورة رئيسية مؤسسة العبودية واسفر انهيار تلك المؤسسة عن ظهور الاقطاع وخراب الامبراطورية. ان سبب الانهيار الاقتصادي حسب رأي

الأستاذ ويسترمان فقدان الحرية التي عادت بافدح الخسائر على المشروعات الفردية و قضت مدينة الرومان في الغرب، وما عدا ذلك من الاسباب اسباب ثانوية. ولم ير ويسترمان في مؤسسة العبودية سببا في الانهيار، لأن العمل العبودي يتعامد مع أقصى ما بلغته الحضارة من رقي ورفاه غير أن سياسية الاباطرة في الأدوار المتأخرة في تأجير الاراضي الواسعة الى الملاكين ادت الى سياسية الاكتفاء الذاتي وتزايد القوى الاقطاعية جاعلة من الفلاحين مجرد ادوات انتاجية فأضرت بمؤسسة العبودية وكان منها انهيار اقتصاد المدن .أكان سبب التدهور الاقتصادي تسرب الذهب الى خارج الامبراطورية؟ يقول كل من المؤرخين ستريير ومو نرو(كانت الصناعات الرومانية بدائية ولتشبع الحاجات الاولية ليست للمتاجرة. نعم كانت هناك تجارة بالكماليات كالعاج والحرير والتوابل والمجوهرات مع الشرق. ألا أن تجارة الكماليات أضرت بالاقتصاد الروماني. فطالما أن الشرق لا يحتاج للصناعات أو المنتجات الرومانية فكان على الرومان دفع ثمن الكماليات المستوردة ذهبا .ونظرا لتناقص كميات الذهب وعدم مقدرة الرومان على تعويضه فقد اثر سلبيا في الأعمال التجارية. وأن ندرة الذهب سببت تقليص العملة وانخفاض الاسعار واختفاء الموارد الأساسية. لقد استند هذا الرأي على ما جاء في كتاب بلني (التاريخ الطبيعي) حول المتاجرة مع الهند والعرب .حيث يقول .تمتص الهند عن طريق التجارة مع الرومان سنويا ما لا يقل عن خمسين مليون ومائة مليون مع العرب والهنود سنويا أيضا. أي ما يعادل مليون ونصف دولار الى الهند وحدها .وما يقارب الخمسة ملايين دولار الى البلاد العربية والهند سنويا .هذا ويرى الأستاذ ويسترمان بأن هذه التجارة كانت في صالح الطرفين ولا يراها سببا في امتصاص الذهب من الإمبراطورية الرومانية. وأشار بأن قلة المعادن الثمينة تعود إلى اكتناز الذهب والفضة داخل البلاد الرومانية لا إلى تسربها إلى الخارج.

ويرى البعض أن فشل الاقتصاد الروماني بصورة عامة يعزا إلى احتقار الرومان للأعمال التجارية الصناعية وقد منعت السلطات الرومانية الطبقات العليا بشكل قطعي من تعاطي تلك الأعمال. لأنها من شيمة العبيد ولا تليق بالأسياد. لذا لم تكن هناك رغبة إبداعية لتحسين أدوات الانتاج أما الأستاذ روستو فتزيف فيعتقد بأن أسباب الانهيار تكمن في ظاهرة النزاع الاجتماعي بين الطبقات انعكس في الصراع الدموي بين البروليتارية الريفية التي ساندها الجيش و بين الطبقات الأرستقراطية في المدن والنظرية بإيجاز أن الإمبراطورية تعرضت إلى صراع حاد بين قادة الجيش في القرن الثالث تحول إلى حروب أهلية ضارية تميزت بسرعة اختيار الاباطرة و ا لاستغناء عنهم بشتى السبل أن ذلك الصراع من العوامل الهامة التي أدت إلى الحكم ولكن ما هي أسباب ذلك الصراع يعتقد البعض أنها أسباب سياسية نتجت عن التنافس بين مجلس الشيوخ و الاباطرة حول السلطة نحو أن هذا الرأي لا يدعمه الواقع. فبالرغم من أن مجلس الشيوخ يضم الطبقة الأرستقراطية العليا إلا أن مساهمته في المجالات السياسية كانت ضئيلة جدا فالصراع الحقيقي لم يكن إذن بين مجلس الشيوخ و الاباطرة. ويعتقد البعض الآخر انه صراع بين الجيش و الاباطرة. حيث ان الجيش لم يعد رومانيا منذ النصف الثاني من القرن الثالث وإنما أصبح يتألف من فرق قليلة التأثر في الحضارة الرومانية. معظمها من القبائل الجرمانية هذا وقد أفسد الاباطرة الجيش بعد انتهاء حكم السلالة الانطونية خاصة عن طريق التملق لقادته لاحتياجهم إلى دعم القادة العسكريين طالما كانت تنقصهم التبريرات الدستورية في أشغال العرش ومن اجل جعله وراثيا. إن محاولة تحويل العرش من منصب انتخابي إلى وراثي يتنافى مع مفهوم الحرية الرومانية. لذا عمد الاباطرة لتأكيد حقهم الوراثي عن طريق إخماد المعارضة عسكريا. واعتمدوا في ذلك على الجيش الذي طغت عليه العناصر

البربرية المؤمنة بالوراثة أكثر من إيمانها بالانتخاب كشيمة الشعوب البدائية بصورة عامة وأصبحت هذه الظاهرة واضحة منذ عهد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس وهنا يتساءل روستو فتزيف لماذا لم يدم توارث العرش في سلالة سيفيروس ما دام الجيش أمن بمبدأ الوراثة بالرغم من معارضة الطبقات الأرستقراطية في المدن ولماذ قلب الجيش ظهر المجن إلى الاسكندر سيفيروس وقتلوه ولماذا هكذا فعلو بأباطرة آخرين جاءوا بعده أين إذن تكمن الأسباب الحقيقية أن جوهر الصراع منذ القرن الثالث هو معركة بين الجيش والطبقات الأرستقراطية في المدن صاحبة الأملاك الزراعية. وقد انتهى ذلك الصراع بانتصار الجيش ودمار الأرستقراطية القديمة المتمثلة في المدن تحت أقدام الجيش والفلاحين ولنكن على علم بأن هذا الصراع لم يتضمن وعيا طبقيا موجها وإنما هو صراع عفوي مثل فيه الجيش قوة مدمرة للنظام الروماني في القرن الثالث خاصة لأن اكثريته الساحقة مجندة من أولئك السكان الذين لم يكن لهم نصيب يذكر في منافع ذلك النظام فهم من صغار المزارعين والاقنان بينما تمثل الطبقات الأرستقراطية الملاكين وحكام المدن وعليه فقد كانت هناك هوة عميقة بين الجيش والطبقات الأرستقراطية. وكان المفروض في هذا الجيش البائس أن يقوم بحماية كيان المدنية الرومانية الأرستقراطية بالإضافة إلى ما يتحمله من أعباء الضرائب والكدح من أجل اعالة الطبقات العليا وبالرغم من التغيرات التي طرأت على الإمبراطورية في نهاية القرن الثالث .فأن العداء بقي مستمرا بين الأرياف والمدن. ومع أن المدن اخذت تفقد أهميتها في القرن الرابع فقد بقيت أداة للسلطة في جباية الضرائب من الأرياف. .فكانت رمزا للتعسف في نظر الفلاحين فقد استمروا في اوضاعهم المزرية. وازدادت حاله البروليتاررية الريفية والمدينية سواء على سوء نتيجة للإصلاحات دقلديانوس.

وفي هذه المعمعة طغت العناصر الجرمانية وتسللت الى مراكز القيادة. وتدني الاقتصاد الى مراتبه بتدهور المدن .ولم يعد بمقدور المدن هلنسة جماهير الريف.بل أن الذي حدث هو العكس من ذلك. إذ اخذ الريف يغزو المدن ويعمل على تريفها وبذلك نشأت عقلية جديدة بين الجماهير. أنها عقلية الطبقات الدنيا المستندة على الدين المعادية للاتجاهات الفكرية للطبقات الارستقراطية والتي بدورها افليت من مثلها العليا واستكانت للضغط الايديولوجي الجماهيري .ويرتأى الأستاذ تويبي أن سبب الانحطاط هو فشل المدينة في ترويض البروليتاررية الداخلية التي ليست لها مصلحة واقعية بمدنية الرومان. وكذلك فشلها في ترويض البروليتاررية الخارجية ويقصد بها جموع البرابرة على الحدود .وللمؤرخ كبون نظرية هامة في هذا الموضوع .فقد أشار الى أن الانحلال اخذ يدب في الامبراطورية منذ اواخر القرن الثاني للميلاد على اثر وفاة الامبراطور ماركوس اورليوس سنة 180 م. ومما يسترعي الانتباه في نظريته أمران. الأول تدفق السيول البربرية على الامبراطورية. ومارست تلك الاقوام أعمالها التخريبية عن طريقين .الأول بربرة المجتمع الروماني بمؤسساته ونظامه من الداخل .والثاني ما سببته هجماتهم المتكررة من استنزاف للأموال والعناصر الرومانية.وان الثغرات التي احدثوها في خطوط الدفاع الرومانية زعزعت الايمان بالامبراطورية في الداخل وكسرت هيبتها في الخارج وجراتهم على التمادي في الاعتداء والدخول عنوة الى الامبراطورية أن اقتضى الأمر ذلك.أما الأمر الثاني حسب رأي كبون فهو انتشار المسيحية. أما كيفية ذلك. فيراه أن المسيحية معول هدم لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية في البداية. إذ أن مواقف المسيحية سلبية ازاء السلطات الوثنية ولم تعترف بقدسية الامبراطور الوثني الذي يحمل الوحدة أو الرابطة الدينية لشعوب الامبراطورية على اختلافها. هذا وأن تعاليمها في أول الأمر مثبطة للهم

الاقتصادية بدعوتها للكفاف أو الرزق اليومي في ابسط أشكاله. وأن دعوتها ضد العنف والحروب أثرت أيضا في الناحية العسكرية .ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطات الحكومية على اثر الاعتراف بها في عهد قسطنطين وشركاه في سنتي 313-311 والتي أدت الى فوضى ايديولوجية عامة اولى أشغال الحكومة الرومانية. إذ حولت جهود الاباطرة من المعسكرات الى المجالس الدينية. وان الفرق المضطهدة أصبحت العدو الخفي للإمبراطورية فان كان اعتناق قسطنطين للمسيحية قد عجل في انحطاط الامبراطورية فأن دينه المنتصر من ناحية أخرى قد خفف من حدة السقوط اذ عمل على تهذيب وحشية الفاتحين .انبرى عديد من المؤرخين الألمان بصورة خاصة للرد على الآراء التي جاء بها كبون .فاتباع المدرسة التاريخية في القرن التاسع عشر ذهبوا الى عكس ما ذهب اليه كبون في أمر برابرة الجرمان واعتبروا العنصر الجرماني مدعاة قوة للإمبراطورية .لان الجرمان لم تكن لهم نية عند نفوذهم الى داخل الحدود الرومانية غير الاحتماء بالإمبراطورية من اقوام أشد بربرية منهم وطلبا للعيش بعد أن شحت عليهم الطبيعة بجهودها في مواطنهم الاولى .كما أن الحوادث التاريخية قد أثبتت أن القسم الأكبر من هذه الجموع الجرمانية كانت خير عون للإمبراطورية في الناحيتين العسكرية والاقتصادية. بتطوعهم في الجيش وباشتغالهم بالانتاج الزراعي.ولهم أيضا نظرة اكبار للمدنية الرومانية. هذا بالإضافة الى ان دخولهم الامبراطورية لم يكن كليا عن طريق القوة ولم يكن مفاجئا.بل ان الرومان كانوا في تعامل مع هذه القبائل سلميا أم حربيا منذ القرن الثاني قبل الميلاد .ويستشهدون بذلك عما جاء به المؤرخ تاكيتوس في القرن الثاني الميلادي. من أخبار عن فضائل الجرمان .اذ وصفهم بالشجاعة والاخلاص .وأثنى على نسائهم وفضلهن عفة على نساء الرومان. أما الردود على نظرية كبون في تحميله المسيحية

مسؤولية الانهيار فتتخلص بما يأتي.ان الكنيسة ذات رسالة قصد بها الخير لتلك المجتمعات انذاك .فدعت الى الايثار والمساواة والسلم. وهي الاداة التثقيفية للأقوام الجرمانية وغيرها. أذ كسرت كثيرا من حدتهم وعملت على ترويضهم وللكنيسة أيضا مواقف عدة كانت فيه عونا للسلطات في حفظ النظام والتوسط بينهما وبين الجموع الغازية .ومثلت أيضا هامل في نقل الحضارة الرومانية من جيل الى اخر.ثم أصبحت فيما بعد من أكبر دعاة الامبراطورية المسيحية .ولنتذكر بأن المؤرخ كبون ينتمي الى المدرسة العقلية التي اشتدت ساعدها في القرن الثامن عشر خاصة .الناظرة بازدراء الى تراث العصر الوسيط لعدم مسايرة الكثير من جوانبه للتحليل العقلي.معتبرا ذلك التراث انتكاسة في تاريخ المدينة الأوروبية. هذا ولم ير المؤرخ النمساوي دوبش أن الغزوات الجرمانية سببا في انهيار الامبراطورية. وأن ما حدث هو اعاده توزيع الأراضي على نطاق واسع حسب العادات الرومانية ولم يؤد ذلك الى عودة الى الاقتصاد البدائي أو انقطاع في التجارة .ويتفق الأستاذpirenneهنري مع ذلك الرأي مضيفا عليه بأن العرب هم الذين دمروا وحدة البحر المتوسط وشلوا التجارة بين الشرق والغرب وامتصوا الذهب من أوروبا وأدت توسعاتهم الى انتقال التجارة الاوربية من البحر المتوسط الى بحر الشمال. .وأجبرت أوروبا بعد ان انقطعت مواصلاتها مع بيزنطة عن طريق البحر المتوسط على الاعتماد على نفسها. وهناك تفسيرات بيولوجية أو كما يشار لها بالنظريات العضوية لسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب.حيث شبه قسم منها حياة المجتمعات بعمر الأفراد .فهناك دورة حياتية متمثلة في الولادة والنضج ثم الفناء .وعليه فالمدنيات كالأفراد صائرة لا محالة الى الموت. ويأخذ بذلك الرأي الأستاذ اسكويت اذ يقول (أن خلايا الامبراطورية الرومانية وانسجتها قد بلغت نهايتها المحتمة كأي شيء حي) ويعتقد الأستاذ شبنكلر أيضا بأن التاريخ

عامة يسير في اتجاه قرر سلفا من الولادة الى الطفولة ومن الى المشيب وحيث الموت. أما الأستاذ فرانك فيعتقد بأن انهيار الامبراطورية كان لأسباب رسيه أي تغلبت الدماء الشرقية على الدماء الرومانية .وتستند نظريته على دراسة اجراها على اسماء الموتى في مقابر ايطالية توصل منها الى نسبة المواليد في الأدوار الأخيرة من تاريخ الرومان كانت تستعين بالمائة من غير الرومانيين .لذا سادت القيم الشرقية التي توضحت في الاتجاهات الدينية وظهور الاستبدادية على الطراز الشرقي وتدهور الآداب اللاتينية وفقر الحكم الى شخصيات موهوبة .وقدردت الاستاذة ماري كوردون على ذلك الرأي بقولها أن الاسماء التي عثر عليها الأستاذ فرانك مظللة تاريخيا. اذ يطلق تجار العبيد عادة اسماء مختلفة على عبيدهم حسبما يشتهون ولا تدل هذه الاسماء بصورة علمية على جنسيات هؤلاء العبيد واصولهم .بالإضافة الى أن دراسة الأستاذ فرانك اقتصرت على ثلاثة قرون درس فيها (13900) قبرا كتب عليها اسماء الموتى .لهذا فلا يصح تعميم ذلك الاحصاء نظرا لطول الفترة وقلة الحالات المدروسة نسبة الى عدد السكان .كما أن الاسماء التي عثر عليها كانت في المقاطعات الرسمية .فما بالك بألاف البروليتارية الذين يدفنون في مقابر عامة بلا تمييز ولا شارات؟ وعليه فأن النموذج الدراسي الذي توصل اليه الأستاذ السابق لا يمثل النسبة بين عدد الأحرار العبيد في الامبراطورية بشكل علمي. ويأخذ الأستاذ نلسون بالنظرية الرسمية أيضا .حيث يشير الى ان أهم مشكلة صادفتها الامبراطورية هي مشكلة الرس اذ قامت مدينة الرومان على نقاوة الرس وقد شابت العناصر الأجنبية نقاء العنصر الروماني في وقت كانت فيه نسبة ولادة الرومان في تناقض.وهنا يعلق الأستاذ بيينز على ذلك بقوله (عندما تستعمل كلمة الرسية في تفسير حوادث التاريخ فمن الاجدر بي ان الوذ بالصمت) ويعلق الأستاذ كاتز على الرسية بقوله (أن الذين

يعتقدون بأن سبب الانحطاط هو استنزاف العنصر الروماني الممتاز عن طريق الحروب أو لعدم رغبة الرومان في انجاب النسل. وأن العناصر الرومانية الجيدة ابتلعتها العناصر الرديئة لا يستندون الى الواقع. ويمكن للإنسان أن يتبين خطئ هذا الرأي بعدم وجود أدلة على أن العناصر الممتازة هي وحدها التي هلكت في الحروب. كما أن الدليل لم يقم على وجود أجناس متفوقة واخرى رديئة بين البشر .ولم يثبت لدينا علميا بأن العناصر الرومانية الممتازة حاولت الانتحار الرسي باضرابها عن تخليد الرس ولا يعتقد الأ ستاذ بيوري بأن سبب الانهيار كان السكان. اذ يشير الى أنه لا توجد أدلة عملية على أن نفوس الامبراطورية في القرنين الرابع والخامس أقل مما كانت عليه في القرن الأول الميلادي .وأن قلة المواليد في ايطاليا لا تفسر لنا الانهيار في القرن الخامس اذ بقيت الامبراطورية محتفظة بجيش يربو على المائة ألف مقاتل .ولا يرى الأستاذ كاتز أيضا بأن نقص السكان من جراء الاوبئة كالطاعون والملاريا في ايطاليا بصورة خاصة سببا أساسيا في الانحطاط. ويعتقد المؤرخ بورغ أن الاصلاحات المدنية والعسكرية التي أجراها دقلديانوس 284-305 مسؤولة الى حد ما عن تصدع الكيان الروماني في الغرب .فبالرغم من أراد تقوية الجهاز الحكومي بوضع حد للمفاسد ولتمكين الامبراطورية من الدفاع عن الحدود ألا أن النتيجة كانت عكس المطلوب .فالفصل بين السلطتين العسكرية والمدنية أدى أن ارباك الوضع. هذا بالإضافة الى تعدد الوحدات الادارية الصغرى التي احتوتها الأقاليم الأربعة لكل من الغال وايطاليا واليريا والشرق. وأدت هذه الى زيادة عدد الموظفين واشتداد البيروقراطية وعرقلة الأعمال .كما أن تقسيم الامبراطورية من ناحية ادارية الى شرقية واخرى غربية بين امبراطورين وقيصرين لم يساعد على القضاء على النزاع حول الاستئثار بالسلطة عند موت أحد الامبراطورين كما توقع دقلديانوس.بل أدى الى حروب

اهلية منذ سنة 305 الى 324 ومنذ وفاة قسطنطين الكبير سنة 327 الى 351 .كما أن معالجته الوضع الاقتصادي المنهار بجعله الصناعة والتجارة تحت الاشراف الحكومي المباشر وجعل المهن وراثية قتلت الابداع وولدت التذمر.ومهما تعددت النظريات والآراء في تعليل سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب فلا بد وان يستشف المتأمل فيها بان هناك تحولات خطيرة في المجتمع الروماني وبدت في تصدع مؤسسة الانتاج الكبرى وانهيارها ألا وهي مؤسسة العبودية الحجر الأساسي في كيان الامبراطورية في الغرب .أن تدهور تلك المؤسسة حتم ظهور علاقات اجتماعية جديدة مستندة على نوع العلاقات الانتاجية الحديثة انذاك .وكانت هذه الظاهرة هي اليد الخفية وراء البلبلة التي أصابت الرومان في الغرب في كافة نواحي مجتمعهم وفككت عراه .وقد اسرعت السيول الجرمانية المتدفقة على الامبراطورية في عملية تلك التحولات في المجتمع الروماني عن دون قصد طبعا والتي اذنت بحلول عصر جديد .اهناك اتفاق على السنة التي زالت فيها الامبراطورية الرومانية في الغرب؟ ان الإجابة عن ذلك السؤال حيوية بالنسبة للموضوع طالما ان نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب هي بداية العصر الوسيط. يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ السقوط اختلافاً كبيرا ومحيرا.ايمكن اعتبار انتصار قسطنطين على خصمه ماكستنيوس سنة 312 في ملفيان في ايطاليا بداية للعصر الوسيط لمجرد اتخاذ الراية المسيحية شعارا له اذ تشير الراية عند البعض الى تحول اديولوجي خطير وأن اعترافه بالمسيحية فاتحة مرحلة جديده بالتاريخ .ايمكن اعتبار سنة 476بداية للعصور الوسطى ؟ وذلك على اثر الانقلاب الناجح الذي دربه الجنرال الجرماني ادوكر ضد روميلوس وحصوله على موافقة مجلس الشيوخ الروماني والامبراطور زينو الذي كان يحكم القسطنطينية .أن قسما من باحثي التاريخ لا يرون في تلك السنه سقوطا للإمبراطور ولو أنه

فرض نفسه على روما فرضا .كذلك لم يشهد ذلك التاريخ جيوشا غازيه ولا معارك شاريه وإنما تمت عملية مجيء ادوكر للحكم بصورة سلميه .وتسأل البعض لماذا لا تكون سنه 410 أو سنه 455 من التواريخ الفاصلة في هذا الشأن؟ فقد استولى الاريك في التاريخ الأول على روما فعلا بعد حصار شديد ومعارك عنيفة وعاثت جموعه الغوطية الغربية في احياء المدينة ولم تسلم منه غير دور العبادة. أن المؤرخ الايطالي فلافيوبايوندي قد اعتبر سنة 410 بداية للعصر الوسيط في كتابة تاريخ روما الذي وضعه في منتصف القرن الخامس عشر .أما التاريخ الثاني أي سنة 455 فقد تعرضت فيها روما لمخاطر هائلة من قبل جيوش الو اندال التي عبرت اليها من شمال افريقيا ولم ينسحبوا منها ألا بعد امتصاص ثرواتها المنقولة ولتدخلات البابا ليو الكبير.أو هل يمكن اعتبار سنة 565 نهاية للحكم الروماني في الغرب؟ لقد اعاد الامبراطور جستنيان الأول ايطاليا وبعض الاجزاء الاسبانية وشمال افريقيا الى الرابطة الرومانية. ألا أن أكثرية ايطاليا خرجت عن السيطرة الرومانية بعد قليل من وفاته .أو يمكن اعتبار سنة 800 م نهاية لسلطة الرومان النظرية على الغرب كما يراها المؤرخ بيوري؟ ففيها قد أصبح شارلمان ملك الفرنجة امبراطورا على الغرب وبذلك انتهت سيادة الرومان على القسم الغربي من الناحيتين العملية والنظرية. غير أن للمؤرخ بيرين رأي اخر اذ يعتبر فيه نهاية العصور القديمة في أوروبا تبدأ في القرن الثامن أي في الوقت الذي سيطر فيه العرب على مياه البحر المتوسط واستولوا على اسبانيا وشلوا التجارة الغربية .ومهما يكن من أمر فأن السلطة الفعلية في الغرب قد انتقلت الى عناصر جرمانية منذ النصف الثاني من القرن الخامس على الأخص .ولم يشهد الغرب امبراطورا يحكم في ايطاليا منذ انقلاب ادوكر. ولعل ذلك من المبررات التي تجعل سنة 476 نهاية للإمبراطورية الرومانية في الغرب وبداية للعصر الوسيط

بالرغم من أن السنوات لا تحدد التطورات التاريخية من حيث البداية أو النهاية .ومع ذلك فأن انقلاب ادوكر جاء منسجما مع حصيلة التطورات العامة في المجتمع الغربي انه احب حبا فاشلا .بدأ حياته الانعزالية في عمر الخامسة عشر في وادي سابين على بعد خمسة اميال من سوبياكو .واشار البابا كريكوري العظيم في كتابه dialogueالى كيف ان بندكت جاهد نفسه لنسيان المراءة بقوله(لقد وعى نفسه على حين غرة فالقي بجسمه على الاشواك عاريا متمرغا عليها مدة من الزمن وما ان نهض حتى كان لحمه ممزقا .ان جراح الجسم ابرات جراح الروح ...)وبعد بقائه هناك بضعة سنوات هرع اليه الرهبان من الاماكن المجاورة وانتخبوه رئيسا .ولكنه حذرهم بان طريقته الديرية قد لا تروق لهم .وبعد بضعة اشهر حاول التخلص منه عن طريق دس السم له في كاس شرابه .وعندها عاد ثانية لحياة الانعزال وتجمع حوله عدد من المؤمنين الأحداث. وأخيرا قرر التوجه الى مونت كاسينو مع قسم من اتباعه .فأسس هناك ديرا على انقاض معبد وثني سنة 529. ووضع فيه انظمته الديرية التي أصبحت قدوة لمعظم اديرة الغرب ..واهم ما جاء في تعاليمه ان يمر المرشح للرهبة بفترة تجربة .فان قرر فيها الاستمرار فعليه ان يكتب تعهدا خطيا مشهدا عليه الشهود .ثم يودع التعهد في الدير باحتفال ديني .وعلى الراهب عدم مغادرة الدير بدون اذن الرئيس .والرئيس ينتخبه الرهبان وعليه ان يشاورهم في كافة الامور الهامة .والقرار النهائي له وعلى الرهبان اطاعته ويجب على الرهبان التصرف بجد وصرامة .فلا ثرثرة ولا ضحك بصوت مرتفع ولا همز ولا غمز ..ولا يملكون شيئاً لأنفسهم. ان كل شئ يعود الى الدير .ان الدير يرحب بالضيوف كما لو كان يرحب بالمسيح نفسه. ويجب على كافة الرهبان الاشتغال في الحقل او الحانوت او في استنساخ المخطوطات. ومن واجب الراهب الاستقامة الخلقية واسعاف الفقراء واكساء العريان والاعتناء بالمرضى .وبذلك

أصبحت الديرية البندكتية حمى و ملاذ للبؤساء الذين انخ عليهم الدهر بكلله في عهد الفوضى .هذا وقد اخذ قسم من النساء في القرن الرابع يقلدن الرهبان في العيش الانعزالي والتعبد متخذات العفة والفقر والطاعة شعارات لهن.وقامت شقيقه القديس بندكت بشولا ستيكيا بتأسيس دير نساء قرب مونت كاسينو بأشراف اخيها سنه 530